أبعاد تجربة السجن عند الشاعر الأمير المعتمد بن عباد

م.د. شيماء هاتو فعل البهادلي
جامعة البصرة ـ كلية التربية

الخلاصة

لابد من القول إن عواطف الشاعر الصادقة ومشاعره الجياشة وراء قدرته في التعبير عن معاناته بعدما اخذ الشعر وسيلة تفصح عن آنينه ، والشاعر المعتمد بن عباد عبر وهو في السجن عن تجربة صادقة عاشها وتعايش معها فنقل معاناته وألمه وحسراته وهو داخل السجن مكوناً أبعاداً كانت ملخصاً لتلك الزفرات التي يطلقها الشاعر وهو في غيابة السجن فكانت للشاعر أبعاد نفسية ورمزية وإنسانية ترجمها شعراً بكلمات وعبارات موحية لخصت تجربة ناطقة بأقسى ما عاناه بعد حياة العز والرفاهية والمُلك الذي تقلب فيه .

المقدمة

عندما دعا النبي يوسف(ع) ربه بقوله{قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ }(١) كي يخلصه من زليخا وشر نسوة المدينة طلب من ربه أن يأويه في السجن،ومما لاشك فيه إن السجن ليس مكاناً للراحة والاستجمام ، ولكن النبي من أجل التخلص من المعصية رأى السجن هو المنقذ والمخلص له حتى لا يعصي الله سبحانه وتعالى ،والحال ليست نفسها مع الشاعر المعتمد بن عباد فقد كان كارهاً جازعاً ، باكياً ونادباً لحظه وزوال نعمته، جاء إلى السجن مرغماً وليس بإرادته ، فالسجن في ظاهره هو إقصاء وقمع للآخر وإجراء عقابي على موقف أو حالة أو فكر مخالف ، وباطنه قمع وإقصاء لذات الفلسفة المحمولة فهو قبر روحي وفكري (٢) ، والشاعر هو محمد بن المعتضد عباد أمير اشبيلية من سلالة النعمان بن المنذر اللخمي أمير الحيرة في الجاهلية رُزقَ به المعتضد سنة(٤٨٨هـ) وكان المعتضد أديبا ومثقفاً ،وطبيعي أن يعنى بتربيته وأنْ يحضر له المعلمين من فقهاء وعلماء بالعربية وكانت فيه فطنة وذكاء ، شب وتفتحت ملكته الشعرية (٣) وكان يعيش حياة بذخ وترف وسلطان وهو ينتمي إلى عائلة مالكة تسلم الملك بعد ابيه، وكان هو الآمر والناهي يأمر فيطاع وله خدم ومرابع زاهية وقصور فارهة ،وما بين ليلة وضحاها تنقلب عليه الأمور ويصبح سجيناً في المنفى على يد يوسف بن تاشفين " الذي قابل الإحسان وكرم الوفادة وحسن الضيافة بالغدر والطمع والحسد والقتل "(٤) فتولدت لديه حالة من الألم والكبت والتأسي على حاله وحال عياله ،وقد رسم الشاعر صورة للسجن في أشعاره وتشكل الصورة في الشعر " الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة "(٥)

إذاً لابد من معرفة موقف الشاعر من السجن هل هو موقف ايجابي أو سلبي ؟ فأبياته تعبر عن حزن ورثاء للنفس وألم على أيام انصرمت ، وتحول الحياة التي كان يحياها وتبدل الأوضاع من الحالة الايجابية إلى الحالة السلبية ،ف "كل أديب هو في الواقع إنسان يحاول أن يتوافق مع الواقع بشكل من الأشكال ، ولو إلى الحد الأدنى الذي من دونه لا يمكنه البقاء في الحياة "(٦) ولتجربة السجن عند الشاعر الأمير أبعاد ثلاثة هي :-

١- البعد النفسي . ٢- البعد الإنساني . ٣- البعد الرمزي .

١ـ البعد النفسي

ويبدو هذا البعد في الصور التي يظهرها الشاعر للقيد ومدى إحساسه وشعوره تجاهه فضلاً عن صورة القصور ومخاطبته الدهر والتوكل على الله وبهذا يكون السجن في هذا البعد " فضاء يتلقى فيه الشاعر نفثاً علويا يؤكد صدق مقصده ، وسلامة مسلكه، وعدالة قضيته "(٧) نتحسس تلك المعاني في قول الشاعر عن القيد والأرق الذي سببه له وهو :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد ، وثقل القيود
وكان حديدي سناناً ذليقاً وعضباً رقيقاً صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهماً يعض بساقي عض الأسود (٨)

صورة أليمة ودقيقة رسم الشاعر ملامحها وحدد زواياها تتمثل في حالة الانقلاب والتحول للحالة التي كان يعيشها الشاعر وهو ملك اشبيلية التي تُعَدُّ من أبهى الدول في الكرم والفضل (٩) فبعد أن كان يحيا حياة العز والرفاهية تحول إلى حياة السجن والمنفى متمثلة بالقيد الذي يعني له العذاب وفقدان الحرية فبعدما كان يحمل السلاح القاطع الذي يذود به عن وطنه ونفسه ويدل على شجاعته وفروسيته قد أصبح

قيداً له يؤذيه ويعني له الذلة والانكسار والهوان وهنا " يجسد البطل السجين قيماً سياسية واجتماعية معينة ، كما أنه يتمتع بمميزات خاصة أهلته لأن يمثل موقعاً ريادياً في الحركات السياسية ، وفي أحيان أخرى نجده يخرج عن إطار البطل المعاصر الذي هل يطل بلا بطولة "(١٠)

أما صورة القيد الذي طال مكثه في قدمه فيصوره بقوله :

قضى وطراً من أهله كل نازح وكر يُداوي عُلـةً في الجوارح
سواي فاني رهـن أدهم مبـهم سبـيل نجاتي آخذٍ بالمبـارح (١١)

حاكى الشاعر هنا القيد الذي قضى وقتاً طويلاً معه وأكد خروج مَن كان معه في السجن وتخلصه من القيد لكنه بقى رهيناً لهذا القيد الذي أصبح علة دائمة لا تبارحه ولا نجاة له منه ويبدو إن الشاعر وفق في التعبير عن معاناته لأن " صدق التجربة وراء نجاح التعبير عنها ، وان جودة هذا التعبير قرينة إخلاص المبدع في التعبير عن ذاته "(١٢)

وفي وصفه للكبل الذي قيده يقول :

تعطف في ساقي تعطف أرقم يُساورُها عضـاً بأنياب ضيغم
وإني من كان الرجال بسيبه ومن سيفه في جنة وجهنم (١٣)

صورة القيد التي يعرضها الشاعر يوضح فيها تعطف القيد حول قدميه مشبهاً عضه بأنياب أسد موجعة مخيفة ومرعبة ، بعد أن كان سيفه يخيف الرجال دالاً به على عدله وشجاعته وصورته هذه قائمة على التضاد ما بين الجنة وجهنم أي الحد الفاصل بين الحق والباطل ولأن " السجين أول عهده بالسجن يبرح به الألم ،وينهش قلبه الحزن وتعصف بصوابه الوحشة ولولا أن شعوره يتبلد فيألف حياة السجن ويرتاح إليها ، لاستحال عليه أن يقيم بين جدرانه دهراً ، ولقضى نحبه في الحال غماً وقهراً " (١٤) .

ومن صور الشاعر النفسية في ذمه للدهر والتوكل على الله سبحانه وتعالى قوله :

قُبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلماً بمن عاداته أن ينادى كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمراً أخجلته كفه فانقطعا
من غمام الجود من راحته عصفت ريح به فانقشعا
من إذا قيل الخنا صم وان نطق العافون همسا سمعا
قل لمن يطمع في نائلة قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوةً جبر الله المعفاة الضيعا (١٥)

يعرض الشاعر في صورته للدهر ، تغير أحواله بعد العز والجاه والسلطان ، قد أصبح رهين السجن والحبس ، فبعد أن كان أهلاً للعطاء والجود والطامحون يرجون عطاياه ، أصبح ينظر لمن يعطي ولا يرجى من بذله ، فهم قد أصبحوا في حالة من الضياع ، وكأن الشاعر في حالة نقمة وتأسي لحالته وما آل إليه ، ومما يلاحظ على القافية انتهاؤها بألف الإطلاق وهذا نجده في عدد من مقطوعاته وهي (قبح الدهر، أقنع بحظك ... ، فيما مضى كنت ... ، قيدي إما تعلمني ...) إذ أنها تجسد " حنين الذات العميق ونزوعها إلى الانطلاق خارج المدار المغلق ... أي إن القافية تشكل طرفاً من ثنائية ضدية طرفها الآخر التجربة الأساسية نفسها : القيد والحصار في السجن "(١٦)

ويتضح البعد النفسي للسجن بقوله:

لك الحمد من بعد السيوف كُبُول بساقي منها في السجون حجول
وكنا إذا حانت لنحر فريضـةٌ ونـادت بأوقات الصلاة طُبُولُ
شـهدنا فكبرنا فظلت سيوفنا تصلي بهامات العدا فتطيل
سُجُودُ على إثر الركوع مُتابعُ هناك بارواح الكماة يسيلُ (١٧)

يحمد الشاعر الله على ما كان فيه من نعيم وبيده سيف فهو القائد والملك ثم أصبح وفي ساقه قيد فبعد أن كانوا ينتظرون أوقات الصلاة يؤدونها في أوقاتها ، يرفعون سيوفهم لمقاتلة الأعداء لأنهم لا يغفلون عنهم ويسقطون القتلى وهم لمصرعهم وكثرتهم كأنهم في حالة سجود وركوع الواحد تلو الآخر ولهذا " ترتبط قصيدة السجن بباعثها الموضوعي ، الذي غالباً ما يتمظهر في الرؤى النفسية التي تتشكل بمعية هاجس السجن ، وما تحمله الرؤى الزمنية من حوادث ، قد يتنبأ السجين بها ، أو بجزء منها "(١٨)

وفي التصبر والقناعة بما أخذه من الدنيا قال :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا وعز نفسك إن فارقت أوطانا
في الله من كل مفقود مضى عوض فأشعر القلب سلوانا وإيمانا
اكلما سنحت ذكرى طربت لها مجت دموعك في خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد بزته سُوُد خطوب الدهر سلطانا
وطن على الكره وارقب إثره فرجاً واستغنم الله تغنم منه غفرانا (١٩)

يوجه الشاعر لنفسه الصبر والتأسي لعله يجد في الإيمان نسيان معاناته ووجوده في السجن لذلك يوصيها بالقناعة والقبول بالحالة التي هو فيها ،فقد وجد في الصبر والتجلد أداة للتعبير عن صلابة موقفه وإشاعة معاني السمو والرفعة والاعتداد بالنفس لذا فهو يرى أن لا قيمة للحياة بذل السؤال فإن عزته هي أسمى من أي اعتبار(٢٠) ولذلك تبقى الضغوط الخارجية التي يعاني منها السجين قاسية إلاّ إنه يتسلح بالصبر وتكون حريته النفسية مقيدة بإرادته (٢١)

وفي صورة من التوبيخ لنفسه تعود ذكرياته إلى الماضي يبكي على تلك الأيام ، فقد أصبح في أرض لا يرغب فيها وينتظر الفرج عسى أن يفرج عنه ويترك السجن ويعود إلى أهله ، فقد وجد في شعره " عزاء يبثه كامن حزنه ، وينفث فيه ذاهب مجده ويتوجع فيه لمصرع بنيه" (٢٢)

وفي قوله أيضاً :

غنتك أغماتية الألحان ثقلت على الأرواح والأبدان
قد كان كالثعبان رمحك في الوغى فغدا عليك القيد كالثعبان
متمدداً بحذاك كل تمدد متعطفاً لا رحمة للعاني
قلبي إلى الرحمن يشكو بثه ما خاب من يشكو إلى الرحمن
يا سائلاً عن شأنه ومكانه ما كان أغنى شأنه من شأني
هاتيك قينته وذلك قصره من بعد أي مقاصر وقيان
من بعد كل غريرةٍ رومية تحكى الحمائم في ذرا الأغصان (٢٣)

مناجاة نفسية من الشاعر يشكو بها حاله إلى الله سبحانه وتعالى عسى أن يخفف عنه الم القيد الذي أصبح ملتفاً حول قدميه كالثعبان ، وفي حالة من التأمل يستذكر قصوره وعزه وجاهه الذي كان فيه ويندب حاله وفيه " انعكف على نفسه وجعله تعبيراً عن مشاعره الخاصة والحميمة " (٢٤)

أما في قوله : أما لانسكاب الدمع في الخد راحةٌ لقد آن أن يفنى ويفنى به الخدُّ
هبوا دعوةً يا آل فأس لمبتلىً بما فيه قد عافاكم الصمد الفردُ
تخلصتم من سجن اغمات والتوت عليّ قيودٌ لم يحن فكها بعدُ
من الدهم أما خلقها فأساودٌ تلوى وأما الأيد والبطش فالأسدُ
فهنئتم النعمى ودامت لكلكم سعادته أن كان قد خانني سعدُ (٢٥)

عانى الشاعر في هذه الصورة من معاناة السجن والعذاب الذي كان يلقاه فيه ، ومعاناة الفرقة والبعد من أناس كان يستمتع معهم ويستأنس بهم عندما كانوا معه لكنهم عندما خرجوا هيجوا في دواخله اللوعة والأسى فقد كان يحس في تواجدهم معه تخفيفاً لآلمه و " ما من ريب في أن الشعر صدى للعواطف والأحاسيس التي تجيش في أعماق الشاعر ووجدانه ، وغالبا ما تكون تلك الكوامن الخفية أساس الإبداع والإجادة والصدق في التعبير "(٢٦)

ولأن " الصورة لا يشترط في خلقها الألوان البلاغية ،ويمكن أن توظف وسائل أخرى في بناء القصيدة كالعاطفة أو الفكرة أو الإيقاع ..."(٢٧) والعاطفة لدى الشاعر وما يحس به من شعور وهو داخل السجن تتضح في قوله : غريب بأرض المغربين أسير يبكي عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمعُ بينهن غزيرُ
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى وطلا به، والعرف ثم نكيرُ
إذا قيل في اغمات قد مات جوده فما يرتجى للجود بعد نشورُ
مضى زمنٌ والملك مستأنس به وأصبح عنه اليوم وهو نفورُ

....

أذل بني ماء السماء زمانهم وذُل بني ماء السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكاءُ عليهم يفيض على الأكباد منه بحورُ
فيا ليت شعري هل أبيتن ليلة أمامي وخلفي روضة وغديرُ
بمنبتة الزيتون موروثة العلا تُغنى قيان أو ترن طيورُ
بزاهرها السامي الذرا جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونشيرُ
ويلحظنا الزاهي وسعد سُعوده غيورين والصبُ المحبٌ غيورُ
تراه عسيراً لا يسيراً مَنَالهُ إلا كلُ ما شاء الإله يسيرُ
قضى الله في حمص الحمام وبعثرت هنالك منا للنشور قبوُرُ (٢٨)

الغربة والأسر شعوران غريبان يعاني منهما الشاعر أشد معاناة ، فبكاء السيوف والقنا وانقطاع العطاء بعد سجنه ، وذهاب أيام الأنس واللهو التي كان يحياها ، مقارناً ذلته بذلة بني ماء السماء في زمانهم لأنه من سلالة النعمان بن المنذر أمير الحيرة في الجاهلية ، ويتمنى لو يعود الزمن ويعيش في قصوره وبين الرياض والغدران في حالة من التأسف والندم على سلطانه وملكه الذي كان يتمتع به ، ولذلك يرى الدكتور مصطفى الشكعة إن واحدة من أسباب سقوط الأندلس هو الترف الشديد الذي انغمس فيه الاندلسيون في حياتهم ، وعدم انتباههم لما يجري حولهم من استعداد وتصيد الفرصة للانقضاض عليهم ... (٢٩) ويبدو شعور الشاعر بالغربة وذل السؤال أيضاً بقوله :

لما تماسكت الدموع وتنبه القلب الصديع
قالوا : الخضوع سياسة فليبدُ منك لهم الخضوع
والدُّ من طعم الخضو ع على فمي السَّمُّ النقيعُ
قد زمت يوم نزالهم إلاّ تحصنني الدروع (٣٠)

فهو أمام تلك الزفرات والآهات التي تعايش معها وهو في السجن يقول عنها الدكتور عمر الدقاق احتواء أبياته على شعور ذاتي ينماز بمرارة التجربة واصالتها ، على الرغم من إن الشاعر لم يعد في مواقع القوة بعد وقد أصبح في أسوا حال إلاّ أنه يبدو رابط الجأش ثابت الجنان (٣١)

٢ ـ البعد الإنساني

لا يكاد يخلو شعر أي شاعرٍ من الشعراء من جوانب إنسانية لأن"الأدب هو الوسيلة المستخدمة في التعبير عن مقاصد الإنسان وأفكاره وفي الإفصاح عن عواطفه وانفعالاته وطموحاته،وفي تصوير آماله والآمه " (٣٢) ولأنه صياغة لموقف إنساني وبعبارة موحية (٣٣) ويتخذ البُعدُ الإنساني لتجربة السجن عند الأمير المعتمد عدة مسارات منها وصيته لنفسه بالقناعة والمواساة ويدعوها إلى التصبر والثبات ، كما يعزيها ويوصيها بانتظار الفرج والظفر والغنيمة من الله فعندما خُلِعَ الشاعر وسُجن باغمات قالت له زوجه اعتماد الرميكية : قالت: لقد هُنا هنا مولاي،أين جاهُنا
قلت لها : إلى هنا صيرنا إلهُنا (٣٤)

فقد كانت معاناة الألم والسجن والأغلال والهم الأثر المباشر الذي أثر في إنهاك صحة المعتمد واشتداد المرض عليه فتوفي سنة (٤٨٨ هـ) في سجن اغمات .(٣٥)

أما صورة القصور التي يتذكرها وهو في السجن فتتمثل بقوله :

بكى المبارك في اثر ابن عباد بكى على اثر غزلان وأساد
بكت ثُرياهُ لاغمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج كلُ ذُله بادي
ماء السماء على أبنائه درر يا لُجة البحر دومي ذات ازباد (٣٦)

يعتمد الشاعر في إبراز الجوانب الإنسانية للصورة على التشخيص إذ يجعل من القصور التي يتذكرها وهي المبارك ، والثريا ، والزاهي ، والوحيد تبكي ويعطيها صفة إنسانية ، وهي حالة مقارنة بين حاله وهو يتنعم ويزهو في تلك القصور وحاله في السجن ، وبكاء الشاعر هنا لشعوره بالألم والأسف على ما مضى "وإذ تتراءى في مخيلة الملك الأسير الشاعر أطلال السعادة الماضية والقصور التي استلبت منه ، كل ذلك كان ممتزجاً بعبير الذكريات السابقة ، وتلوح بين عينيه أيام الجد الزائل مع ما هو فيه من بؤس وشقاء " (٣٧)

أما قوله جواباً عن ابنه الرشيد :

كنتُ حلف الندى ورب السماح وحبيب النفوس والأرواح
إذ يميني للبذل يوم العطايا ولقبض الأرواح يوم الكفاح
وشمالي لقبض كل عنان يُقحم الخيل في مجال الرماح
وأنا اليوم رهن أسرٍ وفقر مُستباحُ الحمى مهيضُ الجناح
لا أجيب الصريخ إن حضر النا سُ ولا المعتفين يوم السماح
عاد بشري الذي عهدت عبوُساً شغلتني الأشجان عن أفراحي
فالتماحي إلى العيون كريه ولقد كان تُرفة اللماح (٣٨)

لقد " كانت حياة هذا الشاعر صورة حية لتقلب الزمن . ومثالاً مجسماً لتناقض الأيام . بل كانت حياته هي الحياة نفسها ، بنهارها المشرق وليلها المظلم ، بربيعها الضاحك وخريفها العبوس ، بقممها التي تصافح السحاب وسفوحها التي تعايش التراب"(٣٩) فالواضح من الصورة أنّ الشاعر يتحدث عن الماضي باعتماده على الفعل / كنت / وما كان يتمتع به من عز ونعيم، وهي قيم إنسانية أحب الشاعر

توضيحها في الأبيات توضح العطايا والكرم والشجاعة والإقدام الذي كان يتصف به ، إذاً هي صورة لما قبل، وما بعد أي الفرق بينهما،فالحالة الأولى تدل على حياة البذخ والترف التي يحياها وهو ملك وما بعد وهي حالة الذلة والهوان أي حالة الأسر والسجن التي أصبح فيها بعيداً عن الناس والاهتمام بقضاياهم ومساعدتهم وإذ " يكمن جانب من جوانب القيمة الإبداعية الجمالية للشعر في ما يعتمل في داخله من علاقات مغايرة أو تضاد معنوي ، تمنحه بعداً جمالياً وتوقداً ذهنياً ينشط حركته الفكرية ، وينمي فيه التداعي الذهني المغذي لأجواء التلقي ، على أن مدى تحقق هذا الجانب الإبداعي يتصل اتصالاً وثيقاً بلغة الشاعر ، وموهبته ، وعمق تجربته الشعرية " (٤٠)

" والمتدبر للصورة لا يقرأ أفكار الشاعر فقط ، وإنما انفعاله العميق أيضاً " (٤١) نلمس ذلك بوضوح في صورة الشاعر التي يعرضها لأسراب القطا عندما رآها هاج وجده وأثار الشوق لديه في قوله :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي سوارح لا سجن يعوق ولا كبلُ
ولم تك –والله المعيذ – حسادةً ولكن حنيناً أن شكلي لها شكل
فاسرح لا شملي صدع ولا الحشا وجيعٌ، ولا عيناي يبكيهما ثكلُ
هنيئاً لها أن لم يُفرق جميعها ولا ذاق منها البعد من أهلها أهلُ
وأن لم تبت مثلي تطير قلوبها إذا اهتز بان السجن أو صلصل القفل
وما ذاك مما يعتريني وإنما وصفت الذي في جبلة الخلق من قبلُ
لنفسي إلى لقيا الحمام تشوف سواي يحبُ العيش في ساقه حجلُ
إلا عصم الله القطا في فراخها فان فراخي خانها الماء والظلُ (٤٢)

يبدو أن حالة السجن والقيد التي آل إليها جعلته يظهر مشاعر التحسر واللوعة على أسراب الطيور وهي غير مقيدة وقد أثارت في دواخله الأشجان فبكى عندما رأى حريته مقيدة ومفقودة ، لهذا هو ينفي أن يكون حاسداً لها لكنه يشبه حالته بحالة الطيور وهي منطلقة في الهواء ، لذا يتمنى جمع شملها ، وأنّ لا يصيبها الفرقة ، ولا تشعر بالخوف كما هو يشعر عندما يسمع صوت صلصلة القفل أو اهتزاز باب السجن ، وتبدو المشاركة الوجدانية والإنسانية واضحة على هذه الصورة .

وفي صورة أخرى للشاعر تتضح فيها المشاعر الإنسانية جاء فيها :

غربان أغمات لا تعدمن طيبة من الليالي وأفناناً من الشجر
تظل زغب فراخ تستكن بها من الحرور وتكفيها أذى المطر
كما نعبتن لي بالفأل يُعجبني مخبراتٍ به عن أطيب الخبر
إن النجوم التي غابت قد اقتربت منا مطالعها تسرى إلى القمر
علي أن صدق الرحمن ما زعمت ألا يُروعن من قوسي ولا ترى
والله والله لا نفرن واقعها ولا تطيرن للغربان بالعور
كما ملأتن قلبي مذ حللتُ به مخافةً أسلمت عيني إلى السهر
ماذا رمتك به الأيام يا كبدي من نبلهن ولا رام سوى القدر
أسرٌ وعسرٌ ولا يسرٌ أؤملهُ أستغفر الله كم لله من نظر (٤٣)

المشاعر التي يعرضها الشاعر يقارن بها حاله وحال الغربان التي تنعم بالحرية ، وكيف تحمي نفسها وتعيش في مأمن من التقييد ، ويشيد الشاعر بأصوات الغربان التي تعطيه الأمل وتبشره بقدوم مَن يحب فهو يرى في نسائه وقدومهن عليه نجوماً قادمة إلى القمر (الملك) إذ يوضح مدى فرحه بقدومهن .

وقد " كان الاستعطاف والاعتذار من أكثر الأغراض شيوعاً في شعر الأسر والسجن في الأندلس "(٤٤) ومن اللافت للنظر أن الشاعر في صوره التي يعرضها وهو في السجن لم نجد له أبياتاً يطلب فيها الاعتذار مباشرة أو الاستعطاف لجهة معينة لملك أو وزير كي يخلصه من السجن ، ويبدو أنّ ذلك يعود لأسباب منها كون الشاعر ينتمي إلى عائلة مالكة في الأندلس ولها شأن وسلطان واسعان أو لكون دولة المرابطين أقامت على أنقاض دولة أشبيلية التي كان يحكمها المعتمد بن عباد وهو آخر عهد له بالسلطان والحكم والجاه ولم يجد أحداً يستعطفه .

ومن الصور التي آلمت الشاعر وهو سجين وكانت تتراءى بين عينيه صورة أولاده وبناته ولاسيما عندما يأتون لزيارته فيراهم في حالة رثة قال فيها :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ في اغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعةً أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا

لا خد إلا ويشكو الجدب ظاهرُهُ وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفطيرا
قد كان دهرك أن تأمره ممتثلا فردك الدهر منهيا ومأمورا
من بات بعدك في مُلك يُسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا (٤٥)

صورة إنسانية مأسوية يحددها الشاعر برؤيته لبناته وحالتهن المزرية وثيابهن الرثة التي تعمق المأساة والألم الذي يتعايشن معه جاءت " تعبيراً عن حالة نفسية معينة يعانيها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة "(٤٦) وكيف تغيرت حالهن بعد أن كانت في عز وجاه أما الآن وهن يغزلن بالأجرة فقد أثارت هذه الأمور كلها في نفسه اللوعة والحسرة ، ويتذكر معهن العيد وهن في قصورهن وما آل إليه حالهن في هذا العيد وهو في السجن و " لا شك في أن شقاء الإنسان في هذا العالم المضطرب يعود إلى إدراكه أن ذاته سجينة حبيسة وأن طاقاته الحيوية تتبدد عبثاً إذا هو لم يستطع أن يبلورها في إطار فكرة واقعية نابعة من حقيقة وجوده عنصراً إنسانيا فعالاً " (٤٧) ٠

٣ـ البعد الرمزي

وفي هذا البعد يكون السجن "فضاء يحتوي الموقف الفني ويوجهه ، ويبعث فيه شروط الإبداع المختلفة ... فتكتسب اللغة فيها طابعاً خاصاً، تتأرجح دلالتها بين قطبين : قطب الداخل وقطب الخارج قطب الحقيقة وقطب الرمز "(٤٨)

ففي قوله عندما دخل عليه ابنه فشعر بالخوف والارتياع من قيده :

قيدي أما تعلمني مُسلما أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الاعظما
يبصرني فيك أبو هاشم فينثني القلب وقد هشما
ارحم طفيلا طائشاً لُبهُ لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئاً فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلا لرضاع فما (٤٩)

تبدو " العاطفة الإنسانية العميقة التي ينطوي عليها قلب الشاعر بإزاء القضية التي يعيشها بين جوانحه ، هذه العاطفة التي توجه تعبيراته الفنية إلى أدوات التعبير الناجحة في امتصاص خلجات نفسه وأهازيج روحه ، بحيث إننا –نحن المتلقين – نحصل في النهاية على عمل فني صادق ، معيار صدقه ما نستشعره فيه من نبض ، وبمعنى آخر نقول إن هذا المعيار هو مدى التكافؤ بين ما يحسه الفنان من عواطف وما يعبر بواسطته عن هذه العواطف " (٥٠) فالشاعر يخاطب القيد ويعلن له الإذعان والاستسلام ومن هذا " كان المعتمد أكثر مسالمة وموادعة ،فلم يؤثر عنه ثورة ، ولا تمرد ،بل يأس واستسلام وأطياف أحلام رواها "(٥١) فقد أصبح لحمه طعاماً ودمه شراباً للقيد وقد وصل إلى العظم لذلك فهو يطلب منه أن لا يهشم العظام وبهذه الصورة يبين حاله والاستمرارية بينه وبين القيد ، ويوضح مدى الذعر الذي أصيب به ابنه عندما رأى القيد في رجليه ، ويطلب منه أن يكون رحيماً عطوفاً عليه كما يطلب الرحمة لبناته وهذا هو المعنى الظاهري للنص ، ولكن التأمل الدقيق في معنى الأبيات يلحظ الرمز فاستعمال الشاعر للقيد يرمز به إلى " الإطاحة بعرشه على يد الأمير يوسف بن تاشفين وسوقه أسيراً إلى منفاه ، وينكر على الأمير يوسف التمادي في إذلاله ، ويطلب منه الرحمة / إطلاق السراح ، أو الشفقة / المعاملة بالحسنى " (٥٢) ٠

الخاتمة

السقوط في الهاوية والوقوع من شاهق هما ملخصا تجربة السجن عند الأمير الشاعر المعتمد بن عباد ، فبعد أن كان محاطاً بهالة من الجاه والسلطان والاحترام أصبح سجيناً ذليلاً منكسراً إلا أن ما يحسب للأمير أنه لم يستعطف أحداً من أجل نيل رضاه أو طلب العفو منه إلا في البعد الرمزي الذي تناولناه في البحث وهو شاهد واحد فقط لا غير يوحي بمخاطبة يوسف بن تاشفين من باب التعريض به بعيداً عن التصريح والمباشرة في الحديث ، ويبدو البعد الإنساني من حزنه على أبنائه وعاطفته الأبوية الشديدة ، ومحاكاته للطبيعة وخاصة الطيور، والبعد النفسي المتمثل بمعاناته من القيد وإيمانه بقدر الله وقضائه والإذعان والتسليم له ، لقد كانت تجربة الشاعر فردية ذاتية تعاني الذلة والانكسار ولم يكن فيها متفائلاً ، فالقيود والقفل عنده باعثة على الأوجاع والآلام التي تسلمه إلى حد اليأس والقنوط من الحياة وقد اتخذ من شعره وكلماته الطريق إلى قلوب أهله زوجته وأولاده ، ولم يكن له حلم بالمستقبل أو الغد الجميل الذي

ينوي أن يتخلص به من السجن ويكون باعثه على الأمل والحرية وتجدد الحياة فعكس ذلك موقفاً سلبياً من السجن والسجان المتمثل بالقائد يوسف بن تاشفين الذي أزال نعيمه وملكه ، ولقد غلب على شعر السجن المقطعات التي جاءت ملائمة للحالة النفسية وما يعانيه من الم وحزن ، ومما يلحظ على عدد من مقطوعاته انتهاؤها بألف الإطلاق وهي (قبح الدهر ، أقنع بحظك ... ، فيما مضى كنت ... ، قيدي إما تعلمني ...) ولغته الشعرية واضحة وبسيطة تتسم بالإيجاز والتكثيف بما ينسجم مع أحواله في تلك الظروف ، وهي بذلك قد أغنت النص وحددت ملامحه ، أما صوره فقد اعتمدت على التقريرية والمباشرة والخطابية فضلاً عن صوره الواقعية التي تستند إلى البيئة والظرف الذي يتعايش معه وهو السجن، والجانب الموسيقي اعتمد على البحور الطويلة التي تنسجم وتلبي حجم معاناته ، أما قوافيه فقد تنوعت وعبرت بشكل وآخر عن مرارته وآهاته فهي تزخر بألفاظ البؤس والفقر والبكاء والخوف والفقد والضياع والفرقة والبعد ، فضلا عن تكرار الألفاظ مثل (بكى ، بكت ، وتعطف) والتصريع بين (مأسوراً ومسروراً) واللفظتان على الرغم من تشابهما إلا هناك فرق شاسع في معنييهما فشتان بين الفرح والسرور وهو خارج السجن ، والحزن والمعاناة وهو داخل السجن والطباق بين (الجنة وجهنم) وكلها وسائل تحقق موسيقى وانسجاماً وتناغماً صوتياً يضيف جمالية إلى موسيقى الأبيات .

قائمة الهوامش

١) سورة يوسف : ٣٣ .
٢) ينظر : الآخر في القران : غالب حسن الشابندر : ٥١ – ٥٢ .
٣) ينظر : الذخيرة : ٢ / ٤١ ، الحلة السيراء ٥٢٢/٢ ، أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث : بطرس البستاني : ١٤٧ ، عصر الدول والأمارات الأندلس : د٠ شوقي ضيف : ٣٣٩ .
٤) الأدب الأندلسي موضوعا ته وفنونه :مصطفى الشكعة : ٥٣٣.
٥) الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر : د٠ عبد القادر القط : ٣٩١ .
٦) الموسوعة النفسية ،علم النفس في حياتنا اليومية :د عبد المنعم الحفني : ٢٣.
٧) فلسفة المكان في الشعر العربي ، قراءة موضوعاتية جمالية : د حبيب مونسي : ٩٧.
٨) ديوان المعتمد بن عباد : د٠ حامد عبد الحميد ، وأحمد أحمد بدوي ، مراجعة د٠ طه حسين : ٩٤ .
٩) ينظر : في الأدب الأندلسي ، د٠ جودت الركابي : ٢٣ .
١٠) الشخصيات في رواية السجن في العراق :د٠ عدنان حسين العوادي وآخر ، مجلة القادسية ، ع ٢ ، ٢٠٠٦: ٧ .
١١) ديوان المعتمد بن عباد : ٩٣ .
١٢) المصدر نفسه : ١١١ – ١١٢ .
١٣) في قراءة النص : د٠ قاسم المومني : ٥٠ .
١٤) أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله : ١٢ .
١٥) ديوان المعتمد بن عباد : ١٠٨ .
١٦) جدلية الخفاء والتجلي : كمال أبو ديب : ٧٠ .
١٧) ديوان المعتمد بن عباد : ١١١.
١٨) قصيدة السجن الحديثة ، دراسة موضوعية :د٠ عبد الله حبيب كاظم ، مجلة القادسية ، مج ٤ ،ع ٣ – ٤، ٢٠٠٥ : ١٦ .
١٩) ديوان المعتمد بن عباد : ١١٤ .
٢٠) ينظر : شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ، دراسة وتحليل :د٠ محمد فتاح عبيد ، مجلة القادسية مج ٢ ، ع ٣ ٢٠٠٢ : ١٤٢ .
٢١) ينظر : أدب السجون : نزيه ابو نضال : ٢٢٢ .
٢٢) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر : ٣٤٤.
٢٣) ديوان المعتمد بن عباد : ١١٥ .
٢٤) الشعر والبيئة في الأندلس : د٠ ميشال عاصي : ٨٥ .
٢٥) ديوان المعتمد بن عباد : ٩٤ – ٩٥ .
٢٦) شعر السجون في القرن الأول الهجري :غانم جواد رضا : مجلة آفاق عربية ، السنة ٣ ، ع ١٢، ١٩٧٨ : ١٠٢.
٢٧) فصول في الشعر : د٠ احمد مطلوب : ١٧٨ .
٢٨) ديوان المعتمد بن عباد:٩٨ .
٢٩) ينظر: الأدب الأندلسي ، موضوعا ته وفنونه :٥٦٠.
٣٠) ديوان المعتمد بن عباد : ٨٨ .
٣١) ينظر : ملامح الشعر الأندلسي : ١٧٢ .
٣٢) مختارات من النصوص الأدبية:صلال صالح ، معاذ سرطاوني : ٥ .
٣٣) ينظر: في الميزان الجديد : د٠ محمد مندور : ١٢٥ .
٣٤) ديوان المعتمد بن عباد : ١١٤ .
٣٥) ينظر : المعتمد بن عباد : علي ادهم : ٣٢٧ .
٣٦) ديوان المعتمد بن عباد : ٩٥ .

٣٧) شعر الأسر بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد : د سوسن صائب المعاضيدي ، مجلة كلية الآداب ،ع ٨٩ ، ٢٠٠٩ : ٦٩٥.
٣٨) ديوان المعتمد بن عباد : ٩٤ .
٣٩) دراسات أدبية : د٠ أحمد هيكل : ٢٧٨ .
٤٠) الصورة الفنية في شعر أبي تمام : د٠ عبد القادر الرباعي : ٧٧ .
٤١) ديوان المعتمد بن عباد: ١١٠ .
٤٢) البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية (في الشعر العراقي الحديث) : د٠ ماهر دلي الحديثي / ١٦١ .
٤٣) ديوان المعتمد بن عباد : ١٠٠ .
٤٤) القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة : د٠ علي الغريب محمد الشناوي : ١٤٣ .
٤٥) ديوان المعتمد بن عباد : ١٠٠ .
٤٦) قضايا النقد الأدبي والبلاغة : محمد زكي العشماوي : ١٠٨.
٤٧) أسفار في النقد والترجمة : د٠ عناد غزوان : ٢٣ .
٤٨) فلسفة المكان في الشعر العربي : ٩٤.
٤٩) ديوان المعتمد بن عباد : ١١٢.
٥٠) شعرنا الحديث...إلى أين ؟ غالي شكري :٢٠١ – ٢٠٢ .
٥١) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : سعد إسماعيل شلبي : ٣٤٢.
٥٢) مظاهر الجرأة في الشعر الاندلسي :د٠علي مطشر نعيمة : ٢٠٢ .

قائمة المصادر والمراجع

- القران الكريم .
- الآخر في القران : غالب حسن الشابندر ، مركز دراسات فلسفة الدين ، وزارة الثقافة (بغداد – ٢٠٠٥)
- الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر :د٠ عبد القادر القط ،ط٢ ،دار النهضة العربية (بيروت ١٩٨١) .
- أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث : بطرس البستاني ، ط٦ ، دار المكشوف والثقافة (بيروت – ١٩٦٨)
- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه :د٠مصطفى الشكعة ، ط٣،دار العلم للملايين(بيروت- ١٩٧٥)
- أدب السجون : نزيه ابو نضال ، دط ، دار الحداثة (بيروت - ١٩٨١)
- أسفار في النقد والترجمة : د٠عناد غزوان ،ط١،دار الشؤون الثقافية العامة،(بغداد - ٢٠٠٥) .
- أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله (بيروت - ١٩٧٨) .
- البناء الفكري والفني للقصيدة الإسلامية (في الشعر العراقي الحديث): د٠ ماهر دلي الحديثي ، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد – ٢٠٠٩)
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر عصر ملوك الطوائف : سعد إسماعيل شلبي ، مطبعة نهضة (القاهرة - ١٩٧٨)
- جدلية الخفاء والتجلي ، دراسات بنيوية في الشعر : كمال أبو ديب ، ط١ ، دار العلم للملايين (بيروت – ١٩٧٩)
- الحلة السيراء : ابن الأبار ، حققه وعلق حواشيه د٠ حسين مؤنس ، ط٢ ، دار المعارف (القاهرة -١٩٨٥)
- دراسات أدبية :د٠ أحمد هيكل ، ط١ ،دار المعارف (القاهرة - ١٩٨٠)
- ديوان المعتمد بن عباد: د٠حامد عبد المجيد ، وأحمد أحمد بدوي ،مراجعة د ٠طه حسين ،ط٥ ،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة - ٢٠٠٨) .
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام ، تح د٠ أحسان عباس ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي (بيروت – ٢٠٠٠)
- شعرنا الحديث ... إلى أين ؟غالي شكري ،دار المعارف (مصر - دت) .
- الشعر والبيئة في الأندلس : د٠ ميشال عاصي ، ط١ ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت – ١٩٧٠)
- الصورة الفنية في شعر أبي تمام : عبد القادر الرباعي ،جامعة اليرموك (الأردن - ١٩٨٠) .
- عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر: كمال أحمد غنيم ، ط١ (٢٠٠٤) .
- فصول في الشعر : د ٠ أحمد مطلوب،مطبعة المجمع العلمي (بغداد - ١٩٩٩) .
- فلسفة المكان في الشعر العربي: د حبيب مونسي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب (دمشق - ٢٠٠١)
- في الأدب الأندلسي : د ٠ جودت الركابي ،ط٣ (مصر - ١٩٧٠) .
- في قراءة النص : د٠ قاسم المومني ،ط١ ،المؤسسة العربية للدراسات والنشر (عمان - ١٩٩٩)
- في الميزان الجديد: د٠ محمد مندور ، مطبعة نهضة مصر (القاهرة – د ت)
- القصيدة الأندلسية في كتاب أعلام مالقة :د٠علي الغريب الشناوي ،ط١ ،مكتبة الآداب (القاهرة -٢٠٠٣)
- قضايا النقد الأدبي والبلاغة: محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية (بيروت - ١٩٧٩) .
- مختارات من النصوص الأدبية: صلال صالح ، معاذ سرطاوني ،ط٢ (١٩٨٦ - دم)
- المعتمد بن عباد : علي ادهم ، دط ، دار القدس (بيروت - دت)
- ملامح الشعر الأندلسي : د٠عمر الدقاق ، ط١ ، دار الشروق (بيروت - دت)
- الموسوعة النفسية، علم النفس في حياتنا اليومية : د. عبد المنعم الحفني، ط١،مطبعة مدبولي(القاهرة - ١٩٩٥)

* الرسائل الجامعية

- مظاهر الجرأة في الشعر الأندلسي: د. علي مطشر نعيمة، أطروحة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة البصرة ، ٢٠٠٩.

*** الدوريات**

- الشخصيات في رواية السجن في العراق :د. عدنان حسين العوادي ، هادي شعلان البطحاوي ، مجلة القادسية ، مجلد٥ ،ع٢ ،أيلول ٢٠٠٦ .
- شعر الأسر بين أبي فراس الحمداني والمعتمد بن عباد ، دراسة فنية موازنة: د. سوسن صائب المعاضيدي ، مجلة كلية الآداب ، ع٨٩ ،٢٠٠٩.
- شعر الأسر والسجون في عصر ما قبل الإسلام ، دراسة وتحليل : د. محمد فتاح عبيد الجباوي ،مجلة القادسية ، مج ٢ ، ع ٣ ، ٢٠٠٢ .
- شعر السجون في القرن الأول الهجري : غانم جواد رضا ، مجلة آفاق عربية ، ع ١٢ ،السنة ٣ ، ١٩٧٨ .
- قصيدة السجن الحديثة ، دراسة موضوعية : د. عبد الله حبيب كاظم التميمي ، مجلة القادسية ، ع٣-٤ ، مج٤ ،٢٠٠٥ .